حرب نيسان وبحر النسيان

رولا عبدالله

مئتا ألف مربع تقاسمتهم جدران ماثلة بالاسمنت «المزركش» بالشظايا، وأسود حاضر بقوة على خلفية حرب أهلية حدثت قبل خمسة وثلاثين عاماً مخلفة أطلال مبان لم يبق منها سوى الصور والأرقام والوجع ومبنى ال»ستي سنتر» شبه المدمّر على تخوم ساحة الشهداء.

مئتا ألف لبناني أخذتهم الحرب الى دهاليز الموت العفنة. أحالتهم صور «محنطة» في الصحف التي ما زالت تحفظ حكاياهم. تخبرعن أطفال كانوا يلعبون بجوار دولاب مدينة الملاهي في الروشة. يدور الدولاب على وقع أزيز الرصاص وحين يتوقف يسود الصمت الذي يعقب فيض الروح. الموت سيّد الساحة، والملثمون أسياد الموقف «الشوارعي». كلاشنيكوف ومدافع وأجساد مبتورة وأطفال يركضون الى حيث تكتب لهم النجاة أو النهاية. وثمة طفلة تائهة تتأمل في عدسة مراسل أجنبي اختارها أن تكون نجمة الغلاف «اليتيمة» في بلده البعيد. وفي خلفية الصورة أناس كثر يحزمون حقائبهم الى بلاد الله الواسعة. كانت الحرب موسم الرحيل بامتياز، ومن حينها لا زالت الهجرة رائجة والطائرات تقل يوميا حمولة زائدة من المغادرين «one way». يكبر الجرح حين يتقدم من صوب الصورة العملاقة رجل مسن يحمل زاده ومعولاً. ربما هو عامل، أو حفار قبور، أو أنه نازح الى مكان أكثر أمناً. ثمة دخان كثيف على الهامش وفي المقلب الآخر حمار على وشك أن يبتسم. وما الذي أتى بالحمار الى داخل تلك الجدارية العملاقة؟. تسأل فيصفعك الجواب: «تتغاضون عن كل الموت الذي تحمله الصورة وتسألون عن حمار». ربما جاء الحمار من أجل أن يضحك على الشعب الذي فاته السؤال عن أسباب الحرب الحقيقية، وبعيداً عن الفلسفة قد يكون دخل في الاطار من دون استئذان أو تخطيط مسبق.

مرعبة صور الحرب تلك، وقد انتقاها عدد من الشباب ممن قدموا أنفسهم بأنهم «مجموعة الفيل». اختاروا الثالث عشرمن نيسان موعداً لانطلاقتهم من قلب مبنى ال»ستي سنتر»المدمر، وبالتعاون مع «أمم للتوثيق والابحاث». افترشوا أهوال الحرب على مئتي ألف مربع هو عدد قتلانا في حينها. والجريء بأنهم لم يغضوا الطرف عما شاهدوا في صحف السبعينات والثمانينات. عرّوا الحرب بأفعالها المخزية: مقاتل «مسعور» ربط سلكاً معدنياً حول رقبة رجل ميّت. يجرّ المقاتل الجثة ولا يفوته أن ينظر الى الكاميرا فرحاً بغنيمته. وهناك وجه آدمي فقد ثلاثة أرباع ملامحه. يحتل الوجه جدارية عملاقة للدلالة على شناعة أساليب التعذيب. وفي جدارية أخرى نساء مقاتلات من مختلف الأطياف. جميعهن حملن الرشاش ومارسن القنص والقتل باسم العقيدة والوطن والزوج. تتأملهن يضغطن على الزناد بينما «تخشّ» أساور الذهب في معاصمهن. مجدداً تسأل :«هل الذهب للزينة أم للفدية أم كانت الحرب مباغتة الى حدود ضيق الوقت الذي لا يسمح بخلع أي شيء». وفي الصورة نفسها سلاح أبيض وزحف مقاتلين وصبي يعزف على الغيتار بالقرب من جثة امرأة. موت وفظائع والنتيجة قتلى بالآلاف ودمار وطفولة مشردة ومفقودين وجثث تسبح في فلك فقد دفّته.

«في بحر من النسيان»معرض ينبش بشاعة الحرب التي خبرها جيل خرج مهزوماً وكاد أن يورث هزيمته لأولاده وأحفاده. يقول ألفرد طرزي المشرف على المعرض بأن الوجع مقصود من أجل اختبار ردة فعل الجمهور في الطريق الى الخطوة الثانية المتمثلة بالمطالبة باقامة نصب تذكاري يخلّد ذكرى ضحايا الحرب الأهلية منذ العام ٧٥ ولغاية يومنا هذا. فهل تنجح «مجموعة الفيل» في تحديد ملامح ذلك النصب؟.سؤال بانتظار دفن الاحقاد والماضي اللذين لا يلبثان أن ينتفضا على هيئة شبح موت.